أزمة لغتنا الجميلة

أ.د. إبراهيم إبراهيم بركات

شبكة الألوكة
www.alukah.net

www.alukah.net
شبكة الألوكة

أزمة لغتنا الجميلة

الأستاذ الدكتور

إبراهيم إبراهيم بركات

ملف المسار ٢٠ يناير ٢٠٠٤ ـ العدد(١٩)

جامعة السلطان قابوس ـ عُمَان

شبكة الألوكة - قسم الكتب

www.alukah.net
شبكة الألوكة

أزمة لغتنا الجميلة

الحمد لله رب العالمين ، والصلاة والسلام على خاتم الأنبياء والمرسلين؛ سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وتابعيه إلى يوم الدين .

فإن اللغة هي المقوم الأساس لتكوين المجتمعات الإنسانية ، لأنها الرباط الذي يجمع أبناء الأمة الواحدة ، وهي الوعاء الذي تنصهر فيه المبادئ والعادات والتقاليد ، والمزاج والفكر والثقافة ، وكل المعطيات التي تشكل الإنسان ، وتترسخ هذه فيه ، لذا ؛ فإن اللغة هي شخصية المجتمع ، كما أنها شخصية الفرد .

واللغة أساس الحضارات البشرية المتتابعة ، سواء أكانت عن طريق الإبداع ، أم طريق النقل والاقتراض والاستيراد ، وهذا يعتمد على شخصية المجتمع ، حيث إن اللغة أرقى ما يتملكه الإنسان من مصادر القوة والتفرد والتميز ، ولا أدلَّ على ذلك من تميز أبينا آدم ، وهي السبيل الأوحد لتواصل الأجيال المتعاقبة ، وتنامي كل أنواع النهضة الاجتماعية ، وحمل ما خلفه الأسلاف ؛ ليبنى عليه الأخلاف ومهما تعددت وسائل التعبير الإنساني ، واختلفت أساليبه ، من : إشارة ، وانحناء ، ورسم ، وتصوير ، وقسمات وجه ، وقفَ شعر ، وإعراض ، ومشى .... إلى غير ذلك ؛ فإن اللغة تبقى على رأس هذه الوسائل والأساليب ، وتظل تغنى عنها ، بل إن الإنسان يصف كل هذه التعبيرات باستخدام وسيلة اللغة .

ولقد تعالت الصيحات بالحديث عن أزمة اللغة العربية في عصرنا الحالي، وتعرضها للخطر أمام اللغات التي تسود العالم، حيث إنها لغة العلم والتقدم

شبكة الألوكة - قسم الكتب

www.alukah.net
شبكة الألوكة

الحضاري والتقنيات الحديثة.وهي ظاهرة صحية؛لأنها تصدر من أناس يغارون على لغتهم ، وهم بذلك يحترمون شخصياتهم ، كما يعتزون بأصالتهم وتاريخهم التليد،وعلينا أن نناقش القضية بموضوعية ، ونقد الذات ، فنقد الذات بدء الإصلاح .

وفي إيجاز يتلاءم مع الموقف ؛ نجد أن اللغة مرآة لشخصية المجتمع ، واللغة العربية مرآة لشخصية المجتمع العربي الراهن ، وعلينا ألا نغفل أنه مجتمع يتمسك بدينه ، ويعض عليه بالنواجذ ، وهو ـ من هذه الفكرة ـ يعتز بلغته اعتزازا لا تفريط فيه .

ومن جانب آخر؛ نجد أن المجتمع العربي يحيا على استخدام المخترعات الحديثة ، وهي ذات أسماء أعجمية ، ولم يقابل كثير منها بالمقابل اللغوي العربي ، ولابد له من تداول هذه المخترعات ؛ لأنها تعينه على الحياة . وهذه معادلة معقدة ، تعود بالسلب على الجانب اللغوي .

وهناك مكمن خطر آخر على لغتنا،ينبع من مراكز التعليم الأولى لأطفالنا، حيث ينشأ الطفل منا على لغة غير لغته ، وذلك في مدارس التعليم الأولي ذات اللغات الأجنبية ، وفيها تتلاشى الشخصية القومية عند الطفل ، ويحل محلها تلك الشخصية ذات اللغة التي يتعلم بها . بل إن بيولوجيته الصوتية تنحرف عما تتطلبه أصوات اللغة العربية ، من تشكل لعضلات أعضاء النطق ، ومن ذلك يتم الانحراف الكامل عن اللغة القومية صوتا ولفظا ومعنى[١] .

(١) ينظر : التعريب والتعليم الجامعي . بحث ألقى بزليتن ١٩٩٢ . للكاتب .

شبكة الألوكة - قسم الكتب

www.alukah.net
شبكة الألوكة

واهتزاز ثقة أي مجتمع في شخصيته يكون مدعاة لاهتزاز ثقته في لغته ، وعلى النقيض من ذلك ، فإن اعتزازه بشخصيته اعتزاز بلغته ، وقد يكون الانبهار بغيره يؤدي إلى الميل إلى لغته .

قد تدعو هذه الملحوظات ، وملحوظات أخرى غيرها ، إلى بث الخوف في قلوب الغيورين على لغتهم وشخصيتهم ، لكنني أكاد أجزم أن هذه العوامل ـ مهما تكالبت وتضافرت ـ لن تؤثر في اللغة العربية ، وذلك بالنظر إلى ما يأتي :

ـ إن اللغة العربية هي اللغة السامية التي صمدت أمام تعاقب الفترات الحضارية،ولم تندثر مثل ما اندثرت ما يربو على عشرين لغة سامية أخرى، ولم يتبق منها سوى بعض المجتمعات اللغوية الضيقة التي تحيا بين المجتمعات الأخرى الأوسع منها .

ـ لقد امتحنت العربية في تاريخها ابتلاءات كثيرة، أوجزها في: استيعابها للأفكار الدينية التي جاءت بها الشريعة الإسلامية الغراء ، وتحملها كل تبعات حركة الترجمة في العصر العباسي الأول من اللغات الأجنبية السائدة ـ آنذاك ـ ، وذلك في قدرة واقتدار ؛ حيث لم يشك واحد من المترجمين من قصور الفصحى عن استيعاب الأفكار الفلسفية والعلمية التي كانت لمفكري الإغريق والرومان والسريان ، وغيرهم[1] .

ـ استيعابها لكل الأمصار المتعددة في لغاتها ومحتواها ، من : الطبيعة ،

(١) د . رمضان عبد التواب . بحوث ومقالات في اللغة ١٧١ ، ١٧٢ .

شبكة الألوكة - قسم الكتب

www.alukah.net
شبكة الألوكة

والعادات ، والتقاليد ، والحاجات ، والاجتماعيات ، والنظم ، والحيوانات ... إلى غير ذلك ؛ حين دخولها في الإسلام ، وبثرائها اللغوي استطاعت أن ترد كل محاولات الخصوم في القضاء عليها ، أو النيل منها ، لإحلال لغاتهم محلها[١] .

ـ كما أن التقلبات السياسية والحضارية والاجتماعية التي مرت بها ، واجتازتها عبر القرون المتتالية ؛ وصمودها أمامها ؛ لخير دليل على قدرتها التي لا تكل من مواصلة العطاء ، وكثير من اللغويين ينتصرون لها في هذا المجال[٢] .

ـ اتسمت اللغة العربية عبر التاريخ بالحياة والتطور والقدرة على التغير، فاستطاعت كلماتها أن تتصف بالتجديد ، أو الاندثار ، أو البعث ...إلخ. كما جمعت بين صفات الوحشية والحضرية، والرقيقة ، والفصيحة ... إلخ، كما أمَدَّت كل غرض تعبيري بما يلائمه من كلمات .

ـ وأنبه في هذا المجال إلى أن للغة ـ من حيث الحكمُ عليها ، جانبين : جانب الكفاءة اللغوية ، وتشمل تلك المفاهيم اللغوية لكل المتحدثين بها ، أي : تجمع كل معاجم الأفراد المتحدثين باللغة ، وجانب المقدرة اللغوية ، وهو الجانب الذي يبين مدى اتساع اللغة لتكوين بنى لغوية . وكفاءة المتحدثين باللغة العربية لا يقاس بالنسبة إلى قدرتها على التوليد ، وقد تنبه إلى هذا علماؤنا الأوائل ، فأشاروا إلى المستعمل والمهمل ، وأكاد أجزم أن المستعمل لا يمثل في تقديري أكثر من ٨٪ من مقدرة لغتنا العربية .

---

(١) التعريب والتعليم . بحث للكاتب . ألقى بجامعة الدول العربية ٢٠٠٢ .

(٢) د . شوقي ضيف . مجلة مجمع اللغة العربية بالقاهرة . مايو ١٩٧٨ صـ ١٩ ـ ٢٦ .

شبكة الألوكة - قسم الكتب

www.alukah.net
شبكة الألوكة

ـ هذا إلى جانب استحضار طبيعة اللغة العربية ، وهي اشتقاقية ، مما يتيح لها التوسع في التوليد بأساليب عديدة ، تتمثل في تعدد الصيغ المولدة من جذر واحد .

واستحضار تلك التجارب الناجحة لبعض الجامعات العربية في التدريس بالعربية الفصحى، مما يبرهن على أنها صالحة للتعبير عن أدق المصطلحات العلمية(١) .

وكذلك قيام كثير من العلماء العرب بصناعة معاجم معربة في موضوعات مختلفة ، منها ما كان في أول العهد ، ومنها الحديث المعاصر في العلوم الطبيعية(٢) .

ـ وعلينا أن نذكِّر بأن اللغة العربية لغة دينية لأهم الأديان القائمة ، وتنبع هذه الأهمية من تأكيد الخالق على حفظ كتاب هذا الدين ؛ في قوله ـ تعالى ـ : ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ ﴿٩﴾ ﴾ [الحِجر] .

إذن ؛ علينا ألا يسيطر علينا الرعب ، إلى درجة تصل بنا إلى اليأس ، وإنما نكون حذرين من التمادي في الإخلال اللغوي ، وجادين في إصلاح ما فات من غفلة أدت إلى تسرب كلمات أجنبية كثيرة في حياة لغتنا ، تكاد تسيطر على أصحاب الغفلة ، وغير العابئين بخطورة ما يحدث في هذا المجال .

---

(١) د . صبحي الصالح . دراسات في فقه اللغة ٣٢٥ .

(٢) من ذلك : معجم د . محمد شوقي في الحيوان ، المعجم الفلكي . د . أمين المعلوف ، معجم الألفاظ الزراعية . للأمير مصطفي الشهابي ، معجم أسماء النبات . د. أحمد عيسى .....

شبكة الألوكة - قسم الكتب

www.alukah.net
شبكة الألوكة

وعلينا أن نعتز بشخصيتنا المتمثلة في لغتنا العربية ، فيكون إقبالنا على لغتنا معادلا لما يقرُّ في نفوسنا ومشاعرنا من أحاسيس قومية .

ولماذا لا نلجأ إلى محاولة إعادة الأمجاد ؟! حين كان أجدادنا أصحاب المنارات العلمية للعالم ، وقد أمدوا الشعوب الأخرى بقاعدة علمية عريضة ؛ شملت الطب ، والكيمياء ، والرياضة ، والفلسفة ، والاجتماع ، والهندسة ، والفلك .... إلخ .

ولا جدال في أن بدْءَنا في الأخذ بالأساليب العلمية يؤدي بنا إلى سلسلة من الإبداعات العلمية،ذلك لأن التفكير باستخدام اللغة التي نشأنا عليها يدفعنا إلى إنجاحات أوسع مما لو فكرنا بلغة أخرى غير التي نشأنا عليها ، لأن هناك علاقة أكيدة بين اللغة والفكر ، منذ تكوينه عند الطفل[١] ، ناهيك عن علاقة اللغة بنمو التفكير ، بل بنمو الوعي الإنساني كله[٢] . وقد ألف تشومسكي كتابا يحمل عنوان : اللغة والعقل ، وما يعتقد الآن هو أن اللغة أفضل مرآة تعكس صفات العقل الدفينة .

وعلينا ـ نحن العرب جميعا ـ أن نبدأ متكاتفتين جادين في طريق التعريب ، فإن واقعنا اللغوي يسفر عن وجهه ، حيث لا تتواكب الجهود اللغوية القائمة مع التطورات العلمية غير العربية ، فيضطر المتحدث إلى اقتراض الكلمات التي يحتاجها من لغات أخرى ، دون أن يبذل أي مجهود إبداعي في الحصول على ما يريده[٣] .

---

(١) جان بياجيه ، اللغة والفكر عند الطفل صـ ٤١ ، ترجمة أحمد عزت راجح .
(٢) فيجوتسكي ، التفكير واللغة ، ٣٥٢ ، ترجمة د . طلعت منصور .
(٣) أولمان . دور الكلمة في اللغة ١٥٩ .

شبكة الألوكة - قسم الكتب

www.alukah.net
شبكة الألوكة

ويقع العبء الأكبر في هذا المجال على عاتق الجامعات العربية ، فهي المنطلق الأساسي لسيادة اللغة القومية ، فمنها يكون المسؤولون في كل المجالات ، كما أنها معاقل الفكر والتفكير ، وهي الموجه الفكري والعلمي والإرشادي للمجتمعات .

ويخطئ من يظن أن قضية التعريب تقوم على عاتق أقسام اللغات ـ بصفة خاصة ـ ، وإنما هي مسؤولية جميع الأقسام العلمية والنظرية ، ويكون شريكا في كل منها لغوي أو أكثر .

وما أكثر انعقاد المؤتمرات ! وما أكثر تعالى الصيحات والنداءات ! والدخيل يزداد غزوه لنا ثانية بعد الأخرى .

وإنني لأرى الطريق يمكن أن يكون ممهدا مجديا إذا تضافرت الجهود الصادقة ، وهي تسير في خطى علمية ، والحديث في المقترحات العلمية في هذا المجال يطول ، ويحتاج إلى مسؤولين تكون قراراتهم مؤثرة ، ولذلك فإنني أرجئ الحديث في هذه المقترحات .

شبكة الألوكة - قسم الكتب